صورة الإمام الحسين عليه السلام في أبعادها الإنسانية والبلاغية

الأستاذ المساعد الدكتور
مرتضى عبد النبي الشاوي
جامعة البصرة ـ كلية التربية
murtathaalshawi@yahoo.com

مدخل:

من الصفات المهمة والبارزة التي يتميز بها الإمام الحسين بن علي عليه السلام هو أنّه أبو الائمة التسعة، وهو سيّد الشهداء في الدنيا والآخرة، وللحسين منزلة إذ جعل الشفاء في تربته ولزيارته خصوصية، ولها آثار ايجابية وبركاتها المتنوعة في حياة المؤمنين وبنية المجتمع المسلم، وفي زيارة الإمام الحسين عليه السلام الأجر والثواب العظيم والعديد من البركات والآثار والأسرار واجابة الدعاء وطول العمر وزيادة الرزق وقضاء الحوائج وزوال الهم والغم والكرب عنه وغير ذلك.

الهدف من البحث هو معرفة صورة الإمام الحسين عليه السلام من خلال النص النثري الصادر من قبل النبي (صلوات الله عليه وسلامه) أو الإمام المعصوم (صلوات الله عليهم) بأبعاده الانسانية، فضلاً عن معرفة التجليات الخاصة به من خلال خطابه الشعري فكثير من شعره يتجلى عن المعاني والمضامين التربوية والارشادية وفقاً للمقاييس البلاغية.

وأسفر البحث في الاشارة أبعاد الصورة في تجلياتها الإنسانية من صفات وجمال وهيبة وعاطفة وأخلاق وملامح بيانية في خطابه الشعري الذي يتوزع في الصور التشبيهية والمجازية والاستعارية والكنائية والزخرفة اللفظية وغيرها من الظواهر التي تعد ظواهر فنية من تصوير غيبي وحوار قصصي وتقديم وتأخير.

تجليات في صفات عليه السلام:

الحسين عليه السلام سبط رسول الله صلى الله عليه وآله، ولقد لقّبه بذلك كما جاء في الحديث عنه: (من سرّه أن ينظر إلى سيد شباب أهل الجنة فلينظر إلى الحسين بن علي).

واشتهر عنه من عدة طرق أنّهما سيدا شباب أهل الجنة [1]، كما لقب الحسين عليه السلام

بالسبط وأنّه سيد الأسباط[٢].

وهكذا بَدَت في ملاح الإمام الحسين عليه السلام ملامح جده الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

فكان عليه السلام يحاكيه في أوصافه صلى الله عليه وآله، كما كان يحاكيه في أخلاقه التي امتاز بها على سائر النبيين عليهم السلام.

وقد وصف بأنّ جسد الحسين عليه السلام يشبه جسد رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقيل: إنّه كان يشبه[٣] النبي صلى الله عليه وآله ما بين سُرَّتِه إلى قدميه.

وقد وصفه الرسول الاكرم بأنّه احدى الثمرتين كما جاء في قوله (أنا شجرة، وفاطمة فرعها، وعلي لقاحها، والحسن والحسين ثمرتها، فالشجرة أصلها في جنة عدن، والأصل والفرع واللقاح والثمر والورق في الجنة)[٤] وفي هذا المعنى قال أحد الشعراء[٥]:

يا حبذا دوحة في الخلد نابتة ... ما مثلها نبتت في الخلد من شجر

المصطفى أصلها والفرع فاطمة ... ثم اللقاح عليّ سيد البشر

والهاشميان سبطاه لها ثمر ... والشيعة الورق الملتف بالثمر

إنّ بحبهم أرجو النجاة غداً ... والفوز في زمرة من أفضل الزمر

هذا مقال رسول الله جاء به ... أهل الرواية في العالي من الخبر

وقال الإمام علي عليه السلام: (مَن سَرَّهُ أن ينظر إلى أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله ما بين عنقه وثغره فلينظر إلى السن ، وَمَن سَرَّهُ أن ينظر إلى أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله ما بين عنقه إلى كَعبِهِ خَلقاً وَلَوناً فلينظر إلى الحسين)[٦].

فقد بدت على وجهه الشريف أسارير الإمامة، وكان الحسين عليه السلام هو الخليفة المنصوص من الرسول[٧]، فكان عليه السلام من أشرق الناس وجهاً، فكان كما يقول الشاعر أبو كبير الهذلي:

وَإذا نَظَرت إلى أَسِرَّةِ وجهه ... بَرقت كَبَرقِ العَارض المُتَهَلِّل

فالحسين عليه السلام هو الخليفة الشرعي بايعه الناس أو لم يبايعه، فبيعة الناس ليست شرطاً في الإمامة وإنّما على الناس أن يبايعوا من أرادته النفوس ولا تصح للامامية بيعة غيره ولا تقع من احدهم إلا اضطراراً [٨].

جماله عليه السلام:

وصفه بعض المترجمين له بقول أحدهم: كان عليه السلام أبيض اللون، فإذا جلس في موضع فيه ظلمة يُهتَدى إليه لبياض حسنه ونحره.

وبقول آخر: كان له عليه السلام جَمالٌ عظيم، ونورٌ يتلألأ في جبينه وخَده، يضيء حَواليه في الليلة الظلماء، وكان عليه السلام أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله.

قيل أتت فاطمة الزهراء عليها السلام بابنيها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في شكواه التي توفي فيها فقالت: يا رسول الله هذان ابناك فرثهما شيئاً فقال: أما فإنّ له هيبتي وسؤددي وأما الحسين فإنّ له جرأتي وجودي [٩] وفي رواية (أما الحسين فإنّ له جودي وشجاعتي) [١٠]

ووصفه بعض الشهداء من أصحابه في يوم الطف قائلاً:

لَـــهُ طَلعـــةٌ مِثـــل شَـــمس الضّـــحى لَـــهُ غـــرَّةٌ مِثـــل بَـــدرٍ مُـــنير

هَيبته عليه السلام:

وكانت عليه سِيمَاء الأنبياء عليهم السلام، فكان عليه السلام في هَيبته يَحكي هيبة جَدِّه صلى الله عليه وآله التي تَعنُولَها الجِبَاه.

روي أنّ إعرابياً سلّم على الحسين بن علي عليه السلام فسأله حاجة وقال: سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إذا سألتم حاجة فاسألوها من احد أربعة: أما من عربي شريف، أو مولى كريم، أو حامل القرآن، و ذي وجه صبيح.

فأمّا العرب - فشرفت بجدك، وأما الكرم فدأبكم وسيرتكم، وأمّا القرآن ففي بيوتكم نزل، وأما الوجه الصبيح فاني سمعت جدك رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إذا ارتدتم أن تنظروا إلى الحسن والحسين [١١]....

ووصف عظيم هيبته بعض الجَلاَّدين من شُرطة ابن زياد بقولهم: لَقَد شَغَلَنا نُورُ وجهِهِ وجَمالُ هَيبتِه عن الفكرة في قتله.

ولم تحجب نور وجهه يوم الطف ضربات السيوف، ولا طَعنات الرماح، فكان كالبدر في بَهائه ونَضَارته، وفي ذلك يقول الشاعر الكعبي:

وَمُجَـــرَّحٌ مـــا غيَّـــرت منـــه القَنـــا حُســـناً ولا أخلَقْـــنَ منـــه جَديـــدا

قَـد كـان بـدراً فاغتَـدَى شمـسُ الضّـحى مُـــذْ ألبَسَـــتْه يـــد الـــدماء بُـــرودا

ولَما جيءَ برأسه الشريف إلى الطاغية ابن زياد بُهِر بنور وجهه، فانطلق يقول: ما رأيتُ مثل هذا حُسناً!!.

وحينما عُرِض الرأس الشريف على يزيد بن معاوية ذُهِل من جمال هيبته وطفق يقول: ما رأيتُ وجهاً قط أحسنُ منه!!.

ولما تشرف عبد الله بن الحر الجعفي بمقابلته عليه السلام امتلأت نفسه إكباراً وإجلالاً له، وراح يقول: ما رأيتُ أحداً قَط أحسَنُ، ولا أملأُ للعين من الحُسَين عليه السلام.

فقد بدت على ملامحه عليه السلام سيماء الأنبياء عليهم السلام، وبهاء المُتَّقين، فكان عليه السلام يملأ عيون الناظرين إليه، وتنحني الجباه خضوعاً وإكبارا له عليه السلام.

تجليات عاطفته:

لم تجف عاطفة الإمام الحسين عليه السلام في هذه المدة الطويلة ولم يتجرد عنها ويدها جانباً كما قد يحصل لكثير من ذوي التصميم والإصرار على الدخول في الصراعات المضنية ومقارعة الأهوال، بل كان عليه السلام كسائر أهل بيته متكامل الإنسانية فهو أشد عاطفة وارقهم قلباً يتفاعل مع الآلام والمصائب التي ت عليه، وتستثيره المناسبات الشجية حسرة وعبرة، كما يظهر بمراجعة تفاصيل الواقعة تاريخياً(١٢).

ونجد ذلك حين انشد عليه السلام تلك الأبيات في الليلة العاشرة من محرم إذ قال(١٣):

يـــا دهـــر أف لـــك مـــن خليـــل كـــم لـــك بالإشـــراق والأصـــيل

مـــن صـــاحب أو طالـــت قتيـــل والـــدهر لا يقنـــع بالبـــديل

وإنّمـــا الأمـــر إلى الخليـــل وكـــل حـــي ســـالك الســـبيل

لكن عاطفته عليه السلام مهما بلغت لم تمنعه من المضي في طريقه، ومن تصميمه على الوصول للنهاية المفجعة، كذل ذلك لفنائه عليه السلام في ذات الله؛ ولأنّ هدفه الأسمى رضاه جل شأنه (١٤)

إذ قال عليه السلام(١٥):

فـــإن تكـــن الـــدنيا تعـــدّ نفيســـة ... فـــدار ثـــواب الله أعلـــى وأنبـــل

وإن تكـــن الأبـــدان للمـــوت أنشـــئت ... قتـــل أمـــريء في الله بالســـيف أفضـــل

وإن تكـــن الأرزاق قســـما مقـــدراً ... فقلـــة حـــرص المـــرء في الكســـب أجمـــل

وإن تكـــن الأمـــوال للتـــرك جمعهـــا ... فمـــا بـــال متـــروك بـــه المـــرء يبخـــل

سأمضـي ومـا بالقتـل عـار علـى الفـتى ... إذا في ســـبيل الله يمضـــي ويقتـــل

فالإمام الحسين عليه السلام مظهر للمصاب والألم.... ألم من أجل الدفاع عن حرية الإنسان فهو شهيد وشاهد وقربان وقف في وجه الباطل وتقبل الآلام لنفسه وعياله فكانت ألامه وتضحيته في سبيل القيم الأخلاقية [١٦].

من مظاهر العاطفة الجود بالمال لقضاء حاجة مسلم اذ جاء رجل من الأنصار يريد أن يسأل الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فقال له الإمام الحسين عليه السلام:

يا أخا الأنصار: صن وجهك عن مذلة المسألة وارفع حاجتك في رقعة، فاني آت فيها ما سارّ كان شاء الله. فكتب الأنصاري:

يا أبا عبد الله... إنّ لفلان عليّ خمسمائة دينار، وقد ألحّ بي، فكلمه ينظرني إلى ميسرة.

فلما قرأ الحسين عليه الرقع، دخل إلى منزله وأخرج صرة فيها ألف دينار وقال للأنصاري:

أما خمسمائة فاقض بها دينك، وأما خمسمائة فاستعن بها على دهرك، ولا ترفع حاجتك إلا إلى أحد ثلاثة:

إلى ذي دين، أو مروءة، أو حسب، فأما ذو الدين: فيصون دينه. أما ذو المروءة فانه يستحي لمروءته.

وأما ذو الحسب: فيعلم أنك لم تكرم وجهك أن تبذله له في حاجتك، فهو يصون وجهك أن يردك بغير قضاء حاجتك[١٧].

أخلاق الإمام أخلاق رسول الله:

نشأ في ظل جده الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فكان هو الذي يتولى تربيته ورعايته، فقد (روى أنّ شاعراً مدح الحسين بن علي رضي الله عنهما، فاحسن عطيته، فعوتب على ذلك، فقال: أترون أني خفت أن يقول إني لست ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ولا ابن علي بن أبي طالب ؟ ولكن خفت أن يقول: لست كرسول الله صلى الله عليه وآله، ولست كعلي، فيصدق ويحمل عنه، ويبقى مخلداً في الكتب، وملفوظاً على ألسنة الرواة، فقال الشاعر: أنت والله ابن رسول أعلم بالمدح والذم مني، وقد وقع الحسن بن زيد بن الحسين بن علي في بعض ما قال جده، قال فيه ابن عاصم المديني، واسمه محمد بن حمزة الأسلمي:

لـــه حـــق، ولـــيس عليـــه حـــقّ ومهمـــا قـــال فالحســـن الجميـــل

وقـــد كـــان الرســـول يـــرى حقوقـــاً عليـــه لأهلـــها وهـــو الرســـول)[١٨]

امتداد العاطفة إلى البعد الإنساني الخاص:

روي للإمام الحسين عليه السلام شعر في التودد العاطفي تجاه أمرأته وابنته[١٩]:

لعمـــــرك أنـــــني لأحـــــبّ داراً تحـــــلّ بهـــا ســـكينة والربـــاب

أحبـــهما وأبـــذل جـــلّ مـــالي ولـــيس للائمـــي عنـــدي عتـــاب

ولســـت لهـــم وان رغبـــوا مطيعـــاً حيـــاتي أو يغيـــبني التـــراب

وقد تكون المخاطبة خاصة تمتد إلى إذراف الدمع ممزوجة بالبكاء والنحيب وهو يتكلم مع بنته سكينة [٢٠]:

ســيطول بعــدي يــا ســكينة فــاعلمي منـــك البكـــاء إذ الحمـــام دهـــاني

لا تحرقـــي قلـــبي بـــدمعك حســـرة مـــا دام مـــني الـــروح في جثمـــاني

فـــإذا قتلـــت فأنـــت أولى بالـــذي تأتينـــه يـــا خـــيرة النســـوان

والأبيات التي رثى بها أخيه الحسن عليه السلام خير دليل[٢١]:

أأدهـــن رأســـي أم أطيـــب محاســـني ورأســـك معفـــور وأنـــت تريـــب

وأســـتمتع الـــدنيا بشـــيء أحبـــه بلـــى، كـــل مـــا أدنى إليـــك حبيـــب

فـلا زلـت أبكـي مـا تغنـت حمامـة ... عليـك ومـا هبـت صـبا وجنـوب
ومـا هملـت عـين مـن المـاء قطـرة ... ومـا أخضـر في دوح الحجـاز قضـيب
بكـائي طويـل والـدموع غزيـرة ... وأنـت بعيـد والمـزار قريـب
ولـيس حريبـاً مـن أصـيب بمالـه ... ولكـن مـن وارى أخـاه حريـب
غريـب وأطـراف البيـوت تحوطـه ... ألا كـلّ مـن تحـت التـراب غريـب
فـلا يفـرح البـاقي ببعـد الـذي مضـى ... فكـل فـتى للمـوت فيـه نصـيب

مروءته:

جنى بعض مواليه جناية توجب القصاص والتأديب فأمر بتأديبه، فقال يا مولاي، إنّ الله يقول: والكاظمين الغيظ، فقال الإمام عليه السلام: خلوا عنه فقد كظمت غيظي، فقال: والعافين عن الناس، فقال عليه السلام: لقد عفوت عنك، فقال: والله يحب المحسنين، فقال الإمام عليه السلام: أنت حر لوجه الله وأعطاه ما يكفيه في حياته(٢٢).

وتبدو هذه الملامح في شخصية الحسين عليه السلام بارزة للإنسانية جمعاء لا شك فيها، والحسين عليه السلام رافد كله عطاء وحيوية فسواء كانت مواقفه إنسانية عامة أو خاصة لا تقل شأناً عن غيرها من مواقفه الاخرى وهو مضحياً بدمه وأبنائه وإخوته وأصحابه في دعم التوهج الروحي لأبناء الأمة من أجل زرع الأمل في النفوس و بثّ روح التفاؤل وحب الحياة والتواصل الاجتماعي والتعامل الإنساني.

ملامح بيانية في شعر الإمام الحسين عليه السلام:

يعدّ شعر الإمام الحسين بن علي عليه السلام من الأدب الإسلامي على الرغم من قلته كما يروى عنه، وينسب إليه من الشعر الإسلامي إذ يتضمن المعاني الإسلامية في الوعظ والإرشاد والنصيحة والفخر والحماسة والوصف والتذكير بالآخرة والتحذير من النار ومن فتنة القبر.

إنّ المكتبة العربية تعرفنا على تراث الإمام الحسين عليه السلام من خلال مصادرها القديمة ومراجعها الحديثة إلا أنّ ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام فهو مبثوث في متون الكتب القديمة

التاريخية وكتب السير التي تناولت أشعاره التي قالها في مواقف متعددة إذ جاءت أشعاره في مناسبات من حياته، فليس للحسين ديوان شعر مروي كبقية الشعراء الإسلاميين، فهناك أبيات مبعثرة في متون الكتب القديمة تنسب إليه.

ويتوزع شعر الإمام الحسين عليه السلام في معان ودلالات وأغراض شعرية مختلفة وصفة الزهد في عموم شعره من الأغراض الشعرية البارزة، وعلى الرغم من عمومية الزهد في شعره إذ يشتمل على أغراض أخرى: الفخر، والشعر الروحي، والشعر الوعظي، والشعر الأخلاقي، والحكمة، والوصف، فشعر الحسين عليه السلام بمفرداته ومعجمه الشعري وصوره وأغراضه خير دليل على ما وصل إلينا منه مدوناً سواء كان مدوناً في متون الكتب القديمة أو منثوراً هنا وهناك أو مجموعاً في ديوان او ذكرت منه مقاطع او قصائد في كتب قديمة، وعلى الرغم من قلته إلا أنّنا نحن فخرون به كلاماً منظوماً في ديباجته الشعرية وموضوعاته الإنسانية؛ بما يحمل من حكمة وزهد وأخلاق وإرشاد وتوعية بأقل ما تتضمن الكلمة الشعرية من إحساس وأفكار والمنهجية التي استعملتها في هذه الدراسة البلاغية البيانية هو تسليط الضوء على أهمّ مرتكزات البلاغة العربية في قراءتها الأكاديمية التطبيقية من جاني تحليلي واضعاً التقسيمات الأساسية لها ومضمناً فروعها متمثلاً بأشعار الحسين عليه السلام بما يناسب تلك التقسيمات كونها ظواهر بلاغية وملامح فنية عامة يتجلى فيها النص الشعري بخطابه العام والخاص وهي دراسة فنية تقف عن مما يأتي:

الصور التشبيهية:

إنّ معالم الصور التشبيهية واضحة وتظهر في أبعاد خطابه الشعري وإنّ مفهوم التشبيه يعتمد على المقارنة بين الأشياء في ضوء الربط والجمع بأداة التشبيه، فهناك مجموعة من الصور التشبيهية المتنوعة وردت في شعر الإمام عليه السلام منها ما يخص التشبيه الذي يتشكل من دون أداة، ويسمّى عند البلاغيين بالتشبيه البليغ ، فالمشبه مثلاً به الحسين نفسه والمشبه به (البدر) كما ورد في قوله[٢٣]:

ألـــيس رســـول الله جـــدّي ووالـــدي أنـــا البـــدر إن خـــلا النجـــوم خفـــاء

وقوله في حماسيته[٢٤]:

أنـــا الحســـين بـــن علـــي بـــن أبي طالـــب البـــدرُ بـــأرض العـــرب

وهناك التشبيه التبليغ الذي من دون أداة بما يعرف عند اللغويين والبلاغيين التشبيه بالمصدر كما في قوله[٢٥]:

فقـــد عمـــي ابـــن آدم لا يراهـــا عمـــىً أفضـــى إلى صـــمم الصّـــماخ

فاستعمال المصدر كأداة للتشبيه، هي صورة في غاية الدقة إذ تتضمن الحدثية، والتركيز على نمطية مميزة لخفاء أحد عناصر التشبيه، تلك الأداة من أجل تحقيق الإيجاز والاختصار والتركيز على الحدث المرتبط بزمن الفعل، وفي تحقيق جوانب كثيرة في التصوير على مستوى التشبيه.

الصور المجازية:

لا يخلو شعر الامام الحسين عليه السلام من الصور المجازية، ويمكن ان نلمس ملامحه في ما يأتي:

المجاز العقلي:

كما في قوله[٢٦]:

ودنيانـــا وان ملنـــا إليهـــا وطـــال بهـــا المتـــاع إلى انقضـــاء

فالمجاز العقلي علاقته السببية لان ميل الإنسان إلى الملذات هو ارتكاب الفاحشة وليس الميل الحركي فكان استعمالاً مجازياً علاقته السببية فسبب الميل هو وجود المتاع.

المجاز المرسل:

كما قوله[٢٧]:

فقـــد عمـــي ابـــن آدم لا يراهـــا عمـــى أفضـــى إلى صـــمم الصـــماخ

فالمجاز مرسل وعلاقته الآلية، فالصمم فقدان لحاسة السمع، والصماخ قناة الأذن الخارجية التي تنتهي عند الطبلة وهي مدخل الصوت.

الصور الاستعارية:

إنّ الاستعارة وسيلة للمبالغة والإيجاز أو التكثيف[٢٨]، وخير مثال للتطبيق تلك الصور

التي جاء بها شعر الحسين عليه السلام في انتظام لوحات فنية كما في قوله[٢٩]:

فيسلم فيه مهجوراً فريداً أحاط به شحوب الاغتراب

إنَّ الشحوب تغيير اللون بسبب كالهزال أو الجوع أو السفر والاغتراب النزوح عن مكان إلى مكان آخر، فاستعارة الشحوب إلى الإغراب يكمن عن أنسنة الأشياء المعنوية، وجعلها في فاعلية الحراك الإنساني وغياب المشبه عن الصورة يجعلها في صبغة الاستعارة التصريحية.

الصورة الكنائية:

تتجلى قيمة الكناية في إيجازها وقوة تأثيرها وتجسيدها المعاني في صور محسوسة[٣٠]، ونجد ملامحها في شعر الحسين كثيراً كما في قوله عليه السلام[٣١]:

وقاطنها سريع الظعن عنها وإن كان الحريص على الثّواء

فسريع الظعن: كناية عن الارتحال، والحريص على الثواء: كناية عن المتمسك والمشفق والراغب في المنفعة؛ لأنّ الثواء معناه ثوى بالمكان استقر وأطال الإقامة به فخفاء الموصوف يدلّ على هذا النوع الذي يسمى بالكناية عن موصوف (ذات).

الزخرفة البديعية:

إنّ البديع مظهر من مظاهر المستوى اللفظي، فيزخر شعر الإمام الحسين عليه السلام بالمحسنات اللفظية مراعاة للجانب الموسيقي؛ لما يمتلك من مراعاة في المطابقة ووضوح الدلالة وهذه التحسينات جاءت كالآتي:

الجناس:

إنّ الجناس أو التجانس تعتمد التماثل السطحي، والتسمية ذاتها تشي بذلك، وتعدّ من أبنية التكرار والإعادة[٣٢].

وكما يكثر من الطباق يكثر أيضاً من الجناس بطريقة عفوية بلا تكلف كما في قوله[٣٣]:

وان كانت الأرزاق شيئاً مقدراً فقلة سعي المرء في الرزق أجمل

وان كانت الأموال للترك جمعها فمال بال متروك به المرء يبخل

فالجناس بين (الأرزاق) و (الرزق) و (الترك) و (متروك) هو جناس ناقص اذ تتواجد زيادة في احدى الكلمتين المتطابقتين اكثر من حرف واحد وهذا النوع يسمى مذيلاً [٣٤].

الطباق:

من الملاحظات الفنية خير ما يطبع شعر الإمام الحسين عليه السلام كثرته في الجمع بين الأشياء المتضادة في بنى قائمة على التوافق السطحي والتخالف العميق؛ لأنّ المستوى السطحي يأتي بالدوال على أطراف تنتج معان كنائية تنحاز إلى الضدية يصبّ في بنية الطباق بوصفه يفرز سياقات ضدية، كما في قوله[٣٥]:

ألـيس مـن أعجـب عجـب العجـب أن يطلـب الأبعـد مـيراث الـنبي

والله قـد أوصـى بحفـظ الأقـرب فالأبعـد خـلاف الأقـرب

وهما ضدان استعان بهما على الزخرفة اللفظية في تفعيل المعاني وإظهار حيرتها على المستوى الفني فالجمع بين الأضداد بين (الأبعد) والأقرب) هو تناسب في الاسمية.

فالإمام عليه السلام يكثر من الأضداد في شعره انسجاماً مع البنية الإيقاعية في تفعيل الثراء اللغوي في عرض المعاني المخالفة من اجل التكثير والسعة، وهو في دلالته على الجمع بين المتضادين؛ لأجل المقابلة المعنوية كما في قوله[٣٦]:

فلـو عشـت وطرقـت مـن الغـرب إلى الشـرق

لمـا صـادقت مـن يقـد ر أن يسـعد أو يشـقي

والطباق بين (الغرب) و (الشرق) و بين (يسعد) و (يشقي) هو طباق الإيجاب تتداخل الألفاظ المضادة فيما بينها مناجل اتساع دائرة المعنى هو تناسب بين أطراف تارة في الفعلية وتارة في الأمسية.

المقابلة:

يعتمد التقابل على مقابلة صورتين لموضوعين أو ذاتين والمقارنة بينهما، ورأي علماء البديع أنّ أعلى رتب المقابلة وأبلغها ما كثر فيه عدد المقابلات لكن شريطة الابتعاد عن التكلف والإسراف فيه، كما ورد في قول الإمام عليه السلام[٣٧]:

فــلا الجــود يغنيهــا إذا هــي أقبلــت ولا البخــل يبقيهــا إذا مــا تولــت

فإنّ (الجود) يقابله (البخل) و (يغنيها) يقابله (يبقيها) و(أقبلت) يقابله (تولت) وهذا النوع من أشكال المقابلة المعروفة بما تسمى مقابلة ثلاثة بثلاثة ومن هنا تكون المقابلة نوعاً من العلاقة بين الأدلة اللغوية، بوق التقابل بنية أساسية للخطاب الأدبي في مستوياته الخطية والإيقاعية والدلالية تحقق انسجاماً وترابطاً بين وحداته[٣٨].

المشاكلة اللفظية:

تعدّ من دائرة التكرار الذي يجمع بين التماثل السطحي والتخالف العميق وفيها طابع التكرارية الذي يتكرر لفظه دون معناه[٣٩]، وتبدو المشاكلة في بنيتها ((قريبة الشبه بالجناس في تكريره اللفظ مع اختلاف المعنى، وفي مخادعة القارئ ومخايلته))[٤٠] كما ورد عنه عليه السلام[٤١]:

عجبــت لمعجــب بنعــيم دنيــا ومغبــون بأيــام لــذاذ

وهذا اللون من التكرار في البنى اللفظية يعدّ واحداً من أبرز آليات بناء أي نص لغوي على مستوى وحداته المعجمية والصوتية والدلالية والتركيبية؛ لما فيه من تكرار على مستوى الخطاب اللغوي لكي يمنحه قدراً كبيراً من التماسك والانسجام[٤٢].

ظاهرة التناص مع القرآن الكريم:

إنّ الخطاب الشعري عند الإمام عليه السلام خطاب متنوع الدلالة ثري بالمفردة القرآنية يتوشح بثوبها ويتعطر بدلالتها الرحبة، يصنع منها مفردة سياق شعري منسجمة في أطر التنغيم على مستوى الإيقاع الداخلي، فضلاً عن الدفقة في إنتاج المعنى على مستوى بنية الاتحاد بين المعنى القرآني والمعنى الشعري لتلك المفردة المتناصة ونلمس ذلك في شعره.

كما في قول الإمام عليه السلام[٤٣]:

وســوّى المــوت بــين الخلــق طــرّاً وكلــهم رهــائن للفنــاء

فلفظة الرهائن: مفردها رهينة، وقد قال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ الطور/٢١، أي: مجازى بفعله.

الظواهر الفنية:

أ - التصوير الغيبي.

إنّ التقاط المشهد الغيبي ونقل الحقيقة من خلف حجاب مادي تلك الحالة التي يؤول إليها الإنسان بعد مماته ودفنه لهي من العبر والمواعظ التي يسهم الإمام عليه السلام في نقلها رهبة لذلك العالم الخفي، وتنبيها وتحذيراً لأنفس كثيرة المعاصي والذنوب، فاستعمال الصورة بأدواتها الفنية من استعارة وكناية في تعبير نفسي وشعوري قد أزاح النقل غير المألوف في تقديم الوصف؛ لما يقع داخل القبر من أهوال غامضة سميت بفتنة القبر، فرسم الصورة بألوانها الإبداعية خفف من حقيقتها مما جعلها أكثر جمالاً وحساً وحيوية في مفردات كما في قوله(٤٤):

يحــوّلُ عــن قريــب مــن قصــور	مزخرفــة إلى بيــت التــراب
فيســلم فيــه مهجــوراً فريــداً	أحــاط بــه شــحوب الاغتــراب
وهــول الحشــر أفظــع كــلّ أمــر	إذا دعــي ابــن آدم للحســاب
وألفــى كــلّ صــالحة أتاهــا	وســيئة جناهــا في الكتــاب
لقــد آن التــزود إن عقلنــا	وأخــذ الحــظ مــن بــاقي الشــباب

يقابلها صورة الدنيا بمغرياتها إذ وصفها بتعابير حسية ممزوجة بأدوات بيانية من استعارة في أنسنة أشيائها وإضفاء ملامح لونية وشعورية لدنيا لتتمظهر بأشياء حسية كما جاء في قوله(٤٥):

ودنيــاك الــتي غرتــك منــها	زخارفهــا تصــير إلى انجــذاذ
تزحــزح عــن مهالكهــا بجهــد	فمــا أصــغى إليهــا ذو نفــاذ
لقــد مزجــت حلاوتهــا بســمّ	فمــا كالحــذر منــها مــن مــلاذ
عجبــت لمعجــب بنعــيم دنيــا	ومغبــون بأيــام لــذاذ
ومــؤثر المقــام بــأرض قفــر	علــى بلــد خصــيب ذي رذاذ

ب - الحوار القصصي

يلجأ إلى الحوار القصصي بين الجماد والإنسان في إضفاء روح حيوية للكلمة لأجل

أنسنة الجمادات فيجعل الأشياء متحركة مع الإنسان في صياغة رصينة.

يخاطب سكان القبور بعد زيارته مقابر الشهداء بالبقيع(٤٦)، وينـاديهم من واقع غيبي لا يمكن أن يتصوره أيّ شخص إلا كان في مقام عال ومرتبة مقربة من مشكاة النبوة، فالإطلاع على عالم الغيب سواء مستوراً تحت الأرض أو في السماء أمر لا يوصفه إلا من يؤمن بذلك إيماناً عميقاً ويقينياً، فيبين فيه مشاعره ويبثّ أحاسيسه، ومهما تكون المناداة والمخاطبة إلى عالم البرزخ يبقى الرد غامضاً غير واضح من أيّ إنسان كائن، فليس هناك أيّ جواب من جانب القبر فلا يسفر عما خفي إلا عندما تكون المخاطبة من نبي أو وصي أو إمام معصوم، فهكذا يكون الحوار القصصي بين حي وبين جماد لا يفصح عن نفسه فنابت عنه الأرض في الحديث والمخاطبة على لسان المتكلم الذي يشعر بإحساسه العميق وخلجات نفسه ما تبعثه الأرض من معاني ، فضلاً عن ذلك إنّ الإمام المعصوم عليه السلام يرى ما لا يراه الناس فعلم الإمام كما جاء في قوله(٤٧):

ناديتُ سكان القبور فأسكتوا	وأجابني عن صمتهم ترب الحصى
قالت أتدري ما فعلت بساكني	مزّقتُ لحمهم وخرّقت الكسا
وحشوت أعينهم تراباً بعدما	كانت تأذى باليسير من القذا
أما العظام فأنئني مزقتُها	حتى تباينت المفاصلُ والشّوا
قطعتُ ذا زاد مِن هذا كذا	فتركتُها رمماً يطوف بها البلا

دلالة أدوات الاستفهام المجازية:

مثل (الهمزة) التي خرجت إلى معنى مجازي وهو الإنكار كما قوله(٤٨):

أفي السبخات يا مغبون تبني؟	وما أبقى السباخ على الأساس

وكذلك (أنّى) في إفادتها معنى مجازي وهو التقريع في قوله(٤٩):

يا أيها الرجل المغبون شيمته	أنّى ورثت رسول الله عن رسل؟

التقديم والتأخير:

من الظواهر الأسلوبية التي تتمحور في اختراق التراكيب السياقية والأنماط المعتادة

فيدلّ على هذه الظاهرة التركيب غير المألوف على مستوى الجملة في خرقها فيعدل المتكلم من نمط معروف إلى نمط غير واضح المعالم لأسباب بلاغية منها الاختصاص ونختصر على بعض الامثلة الشعرية من ديوانه كما في قوله(٥٠):

وفينـــا كتـــاب الله يـــنزل صـــادقاً وفينـــا الهـــدى والـــوحي والخـــير يـــذكر

في تقديم الجار والمجرور الذي يفيد للعناية والاهتمام.

مسك الختام:

فالمتأمل في شعره يجد الصورة الوصفية في أسلوبه الغيبي عندما يتحدث عن القبر ويصف الإنسان من أعماقه، وكأنه يجلي في وصفه العتمة والغموض السائد عند عامة الناس فاستعماله البياني يجسد الصور الحيوية بأسلوب رائع لا يبتعد عن عناصر التصوير الشعري من الاستعانة بها في نقل المشهد أو الوصف أو الفخر أو المدح أو الهجاء؛ لأجل كشف هوية الخصم.

فتارة يستعمل فنون البيان من تشبيه واستعارة أو كناية أو مجاز لرسم معالم التصوير الشعري فيكون الوصف في غاية الدقة والإبداع.

وتارة أخرى يلجأ إلى الحوار القصصي بين الجماد والإنسان في إضفاء روح حيوية للكلمة، لأجل أنسنة الجمادات فيجعل الأشياء متحركة مع الإنسان في صياغة رصينة.

وربما يجمع مع الصورة الشعرية جاذبية المفردة في استعمال الإيقاع الداخلي بجلب مزايا الجرس عن طريق استعمال الزخرفة البديعية من جناس وطباق ومقابلة.

فضلاً عن ذلك يحشد أفكاره باستلهام معاني القرآن الكريم والحديث النبوي فيطرز شعره في مسحة معنوية خاصة يستنطق معها القرآن بمفردات شعرية وإيقاعات مشحونة تتبرز ظاهرة التناص مع القرآن والحديث النبوي.

أما الألفاظ تتراوح بين الليونة والرقة ويحدو بها إلى الاستعمال الفني لما تتضمن من جزالة وحيوية وصدق، وهذه من صفات الشعر الإسلامي، فملامحه واضحة المعالم إلا أنّه واسع الدلالة يختفي في مفرداته وصياغاته معالم البيان العربي من مجاز وتشبيه واستعارة وكناية.

هوامش البحث

(١) مقتل الحسين للخوارزمي: ١٤٢.
(٢) ينظر: مع الحسين في نهضته: أسد حيدر: ١٥.
(٣) أدعية الإمام الحسين "عليه السلام" (الصحيفة الحسينية)، محمد علي علي دخيل: ٤.
(٤) مقتل الحسين للخوارزمي: ١٠٢.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) ينظر: مقتل الحسين للخوارزمي: ١٣٩.
(٧) ينظر: الإمام الحسين والمناوئون: علي الروحاني: ١٣.
(٨) المصدر نفسه: ١٧.
(٩) ينظر: مقتل الحسين للخوارزمي: ١٥٨.
(١٠) مناقب آل أبي طالب / ابن شهر آشوب: ٣ / ١٦٥.
(١١) ينظر: مقتل الحسين للخوارزمي: ٢٢٥-٢٢٦.
(١٢) ينظر: فاجعة الطف: أبعادها، ثمراتها، توفيتها، السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم: ٤٩.
(١٣) مقتل الحسين - أبي مخنف: ٥٢.
(١٤) ينظر: فاجعة الطف للقزويني: ٥.
(١٥) مقتل الحسين للخوارزمي: ٢ / ٣٨.
(١٦) ينظر: جدل ومواقف في الشعائر الحسينية، إعداد: حيدر حب الله: ٤٦١.
(١٧) ينظر: تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني: ٢٧٢، وديوان الإمام الحسين بن علي ووصاياه وحكمه وكرمه: إعداد عبد الرحيم مارديني: ٥٢-٥٣.
(١٨) العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ): ٢ / ٤٥٠.
(١٩) المصدر نفسه: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ): ٢٦/١، ديوان الإمام الحسين بن علي: ٧٥ - ٧٧.
(٢٠) مقتل الحسين لأبي مخنف: ٩٢.
(٢١) مقتل الحسين للخوارزمي: ٢٠٥.
(٢٢) ينظر: سيرة الأئمة الاثني عشر: هاشم معروف الحسني: ٣١/٢، والإمام الحسين الشهيد والثورة، هادي المدرسي: ٢٠.
(٢٣) الديوان: ٧١
(٢٤) الديوان: ٨٢
(٢٥) الديوان: ٩٥

(٢٦) الديوان: ٧٤
(٢٧) الديوان: ٩٥
(٢٨) ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور: ٢٣٢.
(٢٩) الديوان: ٨٣
(٣٠) ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم: ١٩٢/٢.
(٣١) الديوان: ٧٤
(٣٢) ينظر: أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، قراءة محمود محمد شاكر: ١٢.
(٣٣) الديوان: ١٤٤
(٣٤) البلاغة العربية أساليب الكتابة: د. ياسين الأيوبي ومحيي الدين ديب: ٣٢٦.
(٣٥) الديوان: ٨٣
(٣٦) الديوان: ١٣٩.
(٣٧) الديوان: ٨٤
(٣٨) ينظر: البديع وفنونه – مقاربة نسقية وبنيوية، د. شكري الطوانسي: ٢٠٠.
(٣٩) ينظر: البلاغة العربية – قراءة أخرى: د. محمد عبد المطلب: ٣٧٤.
(٤٠) البديع وفنونه – مقاربة نسقية بنيوية: ٩١
(٤١) الديوان: ١٠١
(٤٢) ينظر: البديع وفنونه – مقاربة نسقية بنيوية: ٦٩
(٤٣) الديوان: ٧٤
(٤٤) الديوان: ٨٠ – ٨١
(٤٥) الديوان: ١٠١ – ١٠٢
(٤٦) ينظر: الديوان: ١٨٢
(٤٧) الديوان: ١٨٣
(٤٨) الديوان: ١١٣
(٤٩) الديوان: ١٤٩
(٥٠) الديوان: ١٠٧

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم
١- أدعية الإمام الحسين عليه السلام (الصحيفة الحسينية)، محمد علي علي دخيل، دار المرتضى، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٢- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، قراءة محمود محمد شاكر ، قاهرة، الخانجي، ١٩٨٤.
٣- الإمام الحسين الشهيد والثورة، هادي المدرسي، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط٢، ١٩٨٢م.
٤- الإمام الحسين والمناوئون: علي الروحاني، دار الزهراء، ١٩٩١م.
٥- البديع وفنونه - مقاربة نسقية وبنيوية، د. شكري الطوانسي، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٠٨م.
٦- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٧- البلاغة العربية - قراءة أخرى: د محمد عبد المطلب، الشركة المصرية للنشر - لو نجمان، ط٢، ٢٠٠٧م.
٨- البلاغة العربية أساليب الكتابة: د ياسين الأيوبي ومحيي الدين ديب، مكتبة السائح، مطبعة خليفة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
٩- تحف العقول عن آل الرسول، أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني، دار الكتاب العربي، ط١، بغداد، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
١٠- جدل ومواقف في الشعائر الحسينية، إعداد: حيدر حب الله ، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ٢٠١١م.
١١- ديوان الإمام الحسين بن علي ووصاياه وحكمه وكرمه، اعداد عبد الرحيم مارديني، دار المحبة - دمشق، دار آية - بيروت، ط ١، ٢٠٠٤-٢٠٠٥م.
١٢- سيرة الأئمة الاثني عشر: هاشم معروف الحسني، المكتبة الحيدرية، دار التعارف للمطبوعات، لبنان.
١٣- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، جابر عصفور ، المركز الثقافي العربي، ط٣، بيروت، ١٩٩٢م.
١٤- العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ)، ، شرح وضبط: د. عفيف نايف حاطوم، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٦م.
١٥- فاجعة الطف، محمد كاظم القزويني، مؤسسة البلاغ ، دار سلوني، ط ١، بيروت، ٢٠١٥.
١٦- فاجعة الطف: أبعادها، ثمراتها، توفيتها، السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم، دار الهلال، ط٣، بيروت، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١٧- مع الحسين في نهضته: أسد حيدر، دار التعارف لمطبوعات، بيروت، ٢٠١٠.
١٨- مقتل الحسين - المشتهر بمقتل أبي مخنف، ط١ ، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
١٩- مقتل الحسين، أبو المؤيد الموفق بن أحمد المكي أخطب خوارزم (ت٥٦٨هـ)، تحقيق: محمد السماوي، تصحيح: دار انوار الهدى، مطبعة مهر، ط٣، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.
٢٠- مناقب آل أبي طالب / أبو جعفر محمد بن علي بن شهر آشوب السروى المازندراني، تحقيق وفهرسة: د. يوسف البقاعي، دار الاضواء، ط ٢، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.